فتاة العصر

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب نجيب محفوظ

هو شاب جميل الصورة طاهر النفس، فاضل الخلق، له دين ومروءة وعفة وحياء، يحفظ القرآن ويستلهمه القول والعمل، ويقيم الصلاة زلفى وتقوى، ويؤتى الزكاة طاعة ورحمة، ويصوم رمضان تديناً وتطهراً. ومن يطلع على باطنه يجده سورة صادقة لظاهره، وقد وهبه الله ضميراً يحاسبه على الخطرة الحبيسة حسابه على العمل المحسوس، ويضرم فى نفسه حماساً وشوقاً إلى المثل الأعلى

وقد تسألنى أيها القارئ: هل هذا الذى تعنى أحد أشبال الاسلام الذين جاهدوا مع النبى الأمين؟ فأقول لك: كلا... هو من شباب العصر الحاضر، وقد تهز رأسك باطمئنان الذى اهتدى إلى حقيقة المسألة وتقول: «لا ريب أنه من أبناء الريف الطاهر الذى لم تلوثه حياة الحضر» فأقول لك: إنه من المقيمين فى القاهرة منذ ثمانى سنوات على أقل تقدير، وإنه طالب بكلية الحقوق، وإنه إلى هذا وذاك من أسرة صعيدية معروفة كريمة المحتد موفورة الثراء عظيمة الجاه فلا يمنعه من الاستهتار لو أراده فقر ولا ضرورة. وقد يأخذك العجب وتستبد بك الحيرة ويداخلك بعض الشك فى أننى لم أتوخ الدقة فى وصفه، أو أننى أغض الطرف عن بعض نقائصه غض من يزكى عروساً، ولكننى أؤكد لك أننى لم أجاوز فى نعته قولة الحق، وأنه شاب فاضل حقاً ميزته سجاياه الجميلة عن جمهرة أمثاله من الشبان، فهو لا يشرب الخمر ولا يرقص ولا يدخن ولا يغازل الطالبات والمعلمات. ويتجنب الملاهى حتى البرىء منها، فلم يعرف عنه أنه اختلف مرة إلى السينما ولا دخل المسرح إلا مرة واحدة ليشاهد رواية يوليوس قيصر التى كانت مقررة حينذاك على طلبة البكالوريا، وهو فى حياته العامة والخاصة كالعابد القانت لا يعرف طريقاً سوى طريق الجامعة أو الجامع، ولا يطمئن إلى مكان غير البيت والمكتبة، وقد وهب حياته جميعاً لله والعلم

وما كنت أتطفل على حياته لو أنه قدر لها أن تسير فى مجراها المألوف... لأنه يصح أن يقال فيه ما قيل عن الفيلسوف كانط من أنه لا حياة له. وحسبك أن تعرف تاريخ يوم من أيام حياته الموزع بين العبادة والدراسة لكى تعرف حياته جميعاً... ولكن قدر لحياته غير ما أراد لها ووقع له ما لم يدر فى خلد إنسان...

كان يقيم منذ هبوطه إلى القاهرة فى الجيزة فى بيت من البيوت المعدة لسكنى الطلبة، وكان يسكن البيت المجاور له محام شرعى متزمت، فلبثت نوافذ الحجرة التى تواجه حجرته مغلقة هذه الأعوام كأن لا حياة بها، وانتقل المحامى أخيراً إلى مسكن جديد فحل مكانه موظف حكومى وأسرته ودبت فى البيت حياة جديدة وفتحت نوافذ الحجرة على مصراعيها وتمتعت بعد طول الحرمان بنور الشمس وطيب الهواء

ولم يفت الشاب ملاحظة التطور الجديد ولكنه لم يلق إليه بالا. وإنه ليجلس إلى مكتبه ذات يوم يكتب بعض المحاضرات سمع ضحكة رقيقة، فالتفت

إلى الحجرة المواجهة له بحركة عكسية فلمحت عيناه «صورة أنثوية» ثم رد رأسه إلى الأوراق الموضوعة على مكتبه بسرعة البرق فلم يعرف من صاحبة الصورة إلا جنسها، أما لونها وشكلها فلم تلتقط منهما عيناه أي أثر وما كان ينبغي له ... ومضى يكتب محاضراته إلا أنه كان يحرك عينيه — ورأسه ثابت — ناحية النافذة كلما مضت فترة من الوقت فيلحظ الصورة الأنثوية الغامضة في مكانها من النافذة لا تريم، حتى أخذه العجب من ملازمتها لوقفتها — الخالية من الحياء — واشتد به العجب فرفع رأسه ورأى فتاة تطالع في كتاب وكأنها أحست بحركته فهمت برفع رأسها ولكنه رد رأسه إلى موضعه الأول بسرعة وقد اهتاجه الحياء والغضب وهمس لنفسه: «عسى ألا تكون رأتني» وبات ليلته غير راض عن نفسه لأنه صرف ثواني من وقته الثمين في غير ما يرضي الله ...

وفي صباح اليوم التالي وكان يرتدي ملابسه؛ لاحت منه التفاتة — لا يدري كيف — إلى نافذة جارته فرآها تطل منها في معطف المدرسة الأزرق الجميل وعلى رأسها قبعة صغيرة أنيقة فالتقت عيناها قسراً، وسحب عينيه — كالعادة — بسرعة فلم يدرك حسن هاتين العينين ولكنه — وآسفاه — أحس بهما. وغادر البيت ساخطاً غاضباً يفكر في وسيلة يقطع بها دابر هذا الشر الباغت.. ولكن كيف ... إنه لا يستطيع أن ينتقل إلى حجرة أخرى فإن جميع حجرات البيت مأهولة بالطلبة ... ولا يستطيع أن يغلق نافذة حجرته دواماً فهذا فوق ما يحتمل ... وجعل يفكر في أمر الفتاة ساخطاً غاضباً لاعناً، ولكنها على كل حال استطاعت أن تفرض نفسها على تفكيره سحابة يومه ...

ولدى عودته إلى مكتبه عصراً شعر بعجبها إلى النافذة كما فعلت بالأمس ولكنه أقسم ألا يميرها أي انتباه وألا يحنث بقسمه مهما كانت الظروف والأحوال؛ إلا أن جهداً كبيراً مما كان يصرفه في القراءة بذله في تركيز الانتباه وتجنب الحذور ... وبالرغم من ذلك المجهود الجبار فقد طرق أذنيه صوتها وهي تتكلم بصوت رخيم يحمل من أتفه الأحاديث ألحاناً رشيقة، ولم يفقه لما تقول معنى، ولكن لم تغب عنه حلاوة الصوت ... ترى من تحادث ... ولكن ماله هو ومن تحادثه ... فلتحدث من تشاء ... أو فلتحدث نفسها كالمجانين ... المهم أن يصم أذنيه عن صوتها الخبيث ... يا للشيطانة ... إنها لا تقنع بهذا الحديث فتضحك ضحكتها الرقيقة الطرية المغرية، وتالله إنها لتضحك لا بدافع السرور أو الطرب ولكن إيقاظاً للعواطف والشهوات ... فكيف السبيل إلى تفهم الرومانى والشريعة وسط هذه الاذاعة الجنونية المضطرمة؟...

ومضت أيام كثيرة وأسابيع وهي لا تكف عن أحاديثها الرقيقة وضحكاتها المثيرة وهو جامد كالجبار صارم كالصخر يجاهد نفسه مجاهدة عنيفة ويكبت عواطفه كبتاً لا هوادة فيه، ولكن الفتاة لم تستسلم للقنوط بل لجأت إلى طريقة شيطانية فأتت بطفل صغير وحملته بين يديها ومضت تداعبه وتلاعبه وتقبله قبلات حارة يرن صداها في حجرته وتقول له بصوت مسموع «يا حبيبي ... قبلني ... أعطني شفتيك المذبتين ... مالك لا تنظر إلي... أنظر إلى حبيبتك ... ألا تحبني ... ألا يروقك وجهي ... أنظر إلي يا حبيبي ...»

فكان يصغي إلى مناجاتها بقلب مرتجف كجناح طير ذبيح ، والدم يتصاعد إلى رأسه فيخضب وجهه وينبض بقوة في أذنيه ويستسلم إلى الاصغاء استسلام المجاهد اليائس أضناه الجهاد والعزم، ولا يلبث أن تتجلى في عينيه نظرة حزن عميق ويهتف من أعماق قلبه المعذب: « رباه ... اغفر لي ذنبي وهبني من لدنك قوة » ... ولكنها كانت تزداد جرأة على مرور الأيام حتى كان يصلي عصر يوم فوقفت خلف النافذة تديم النظر إليه وتقول ضاحكة : «إدع لي» وتقول أيضاً : « الله يهديك ويفتح عليك » فلما أن رآه يركع ليختم الصلاة أخذت تقرأ التحيات معه كلمة كلمة ... فاضطرب واستحيا ... رباه ... لقد جنح فكره إليها وهو بين يدي الله . وانفتل من الصلاة حزيناً كئيباً وارتمى على مقعده وجعل يتلو الآية الكريمة: «فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » وكأن الآية الشريفة أمدته بقوة غريبة فانتفض قائماً بعزم كالحديد وسار إلى النافذة وفي عزمه أن يغلقها بشدة وعنف ... وقرأت الفتاة عزمه في تقطيبة جبينه فهتفت به بدلال جميل « إخص يا قدري ... »

وانخلع قلبه في صدره ورفع بصره إليها وهو لا يدري، فامتلأت عيناه من وجهها الأسمر البدري وهو في غيبوبة الدهشة والذهول .... وجفلت يداه من مس النافذة فعاد إلى مكانه كمن يسير في حلم .... كيف عرفت اسمه ؟ .... كيف ؟ ... ولماذا نادته به ؟ .... ما أجمل صوتها ! .... وما أجمل اسمه في صوتها ! .... إنه لم يناد هذا النداء من قبل .... وما هو بالنداء ، إن هو إلا غناء جميل .... لقد غنى باسمه كما يغنى بأسماء مشاهير العشاق في الروايات الغنائية الخالدة .... ولقد سما اسمه على أجنحة ذلك الصوت المذيب إلى طبقات الفضاء العالية ينافس محاسن الطبيعة حسنها وجمالها .... لقد أنى ذلك النداء على البقية الباقية من عزمه فتخاذل وتضعضع ولم يغن عنه عزمه ولا إيمانه فتيلا .... وطال ليله ولكنه لم ينم كبشار . وطرح على نفسه هذا السؤال أكثر من مرة « هل الحب فضيلة » ؟ إن ما يسمونه حبا وما هو إلا عبث وقبل ووعود كاذبة، رذيلة منكرة؛ أما تلك الجاذبية النفسية التي يهتدي بها الانسان إلى شريكته في الحياة فهي الحب وهي الفضيلة ، ولقد أحب النبي الكريم السيدة خديجة ، ثم أحب مرة أخرى السيدة عائشة أم المؤمنين، وما كان في الحالتين إلا كامل الخلق كما وصفه الله تعالى .... فما الحب بالرذيلة التي تخشى مقارفتها ، وما عليه من بأس في أن يحب جارته التي أجبرته على حبها .... وهكذا جعل يهون وقع المصاب على نفسه ويبرره أمام ضميره ليطمئن نفسه المذعورة المتهالكة .... وفي الصباح قام من نومه نشيطا مبتهجا برغم تقلبه وتسهيده وارتدى ثيابه بعناية لم يلق إليها بالا من قبل ، وكان يختلس من النافذة نظرات يبعثها الرجاء ويردها النهيب، ولكنه ألفاها خالية ، ولم يبق شيء يعوقه عن الذهاب إلى الكلية ولكن كبر عليه أن يذهب قبل أن يتزود بنظرة من وجهها الأسمر الجميل .... ولكن النافذة ظلت خالية كالفم الفارغ الذي غاب عنه دره النضيد .... ولم ير بداً من الذهاب فذهب كئيباً محسورا ورجع متلهفاً جزوعاً ، وانتظر على حرقة وشوق ، ولكن لم

يرى لها أثراً ولا سمع صوتاً فذهب وجاء، وجاء وذهب وقام وقعد، وقعد وقام، وجعل يقلب فى أوراقه وكتبه بدون وعى، ودلف إلى نافذة حجرته واستند إليها وانتظر وانتظر . . . ثم انتظر حتى ضاق به الصدر وكتمت الأنفاس وحتى ودّ لو يصرخ بأعلى صوته أو يسير شوطا كبيرا بغير هدى، ومضى ذاك اليوم غير محسوب من العمر فلا ذوق للطعام فى فمه، ولا معنى للرومانى فى عقله، ولا أثر للصلاة فى قلبه.. ولا سبيل للنوم إلى جفنيه . . . . لقد مات ذلك اليوم الأغبر . . . .

وفى صباح اليوم الثانى . . . . وكان الجمعة — رآها كما كان يراها — فهبطت على قلبه طمأنينة سعيدة، وفرح فرح ذلك الانسان الذى رد إليه نور الأبصار بعد ظلام العمى ورفع نظره إليها بعد تردد واستحياء، ولكنه أحس بخيبة لأنه رآها تنظر فى كتاب بين يديها غير ملتفتة إليه فأدام إليها النظر ولكن لم يبد منها ما يشعر بأنها أحست بوجوده، فاقترب من النافذة وسعل سعالا خفيفا فنظرت إليه نظرة غريبة لا حياة فيها كأنها تراه لأول مرة ثم عادت إلى النظر فى كتابها . يالله الشيطان! ماذا حدث؟ أهى هى بذاتها أم هذه أخرى تشبهها؟ مالها هكذا جامدة وما الداعى إلى هذا الفتور؟ وفيم كانت إذاً مطاردتها له وإلحاحها عليه وتغنيها باسمه؟! أتناست هذا كله بين يوم وليلة فحل الزهد مكان الرغبة والجفاء مكان المودة؟ ورآها تغلق الكتاب وتعديديها إلى مصراعى النافذة تريد إغلاقها فنسى نفسه وحياءه ورفع يديه إليها بتضرع وقال: « كلا . . . » فتوقفت ونظرت إليه نظرة شديدة إلى حين . . . ثم لم تتمالك نفسها فانفجرت ضاحكة ضحكا مكتوماً ظافراً وتجلت فى عينيها نظرة المجون والعبث . . . . فيالله الشيطانة . ولم تضع وقتها سدى، فأشارت بيدها إلى نفسها وإليه ثم إلى الشارع، فاضطرب وتحير وأشار إلى الشارع مستفهما منكرا فهزت منكبيها ببساطة وأحنت رأسها كأنها تقول « ولم لا؟ »

فازداد حيرة لأنه يرى أن « الزندى ثو » باب من أبواب الحب المحرم لا الحب الفاضل فوقف متردداً لا يأتي حراكا ولكنها هزت يدها هزة عصبية تستحثه . . فأسرع إلى بدلته وارتداها ووضع الطربوش على رأسه بعناية فائقة وهبط السلم إلى الطريق لا يلوى على شىء، فرآها تسير على بعد أمتار منه فتبعها كالكلب الأمين، حتى بلغا ميدان الجيزة وانحرفت إلى اليسار فى طريق الأهرام وهو فى أثرها يتلفت بين الحين والحين يمنة ويسرة . . . وانتهت إلى محطة الترام ووقفت، فوقف على بعد منها قريب مضطرباً حائراً محمر الوجه — فالتفتت إليه وابتسمت ابتسامة مشجعة فابتسم ابتسامة ذاهلة ولم يدر ماذا يصنع، فلم تر بداً من أن تتقدم إليه وتمد إليه يدها وتقول برقة: « بونجور » فمد إليها يده كالخائف ورد عليها وهو لا يدرى ما يقول « بونجور مسيو » وهمّ بالالتفات فيما حوله ولكنها همست فى أذنه ضاحكة « الثبات » وجاء الترام رقم ١٤ فصعدت إليه وصعد خلفها وانتبذ مقعداً منفرداً وذهب بهما فى طريق الأهرام — وفي أثناء الطريق لاحظت ارتباكه فسألته برقة . . .

— مالك؟ فقال بصوت ضعيف

— لاشىء مطلقاً . . إلى أين نحن ذاهبان؟

— ستعلم بعد حين

— وماذا عسى أن يقولوا فى البيت؟

فأرته كتاب الطبيعة للمدارس الثانوية الذى كان بيدها وقالت ضاحكة :

— يقولون إنى أذاكر عند إحدى زميلاتى

فضحك قدرى وقد أحس بأنه ينبغي أن يقول شيئاً ليثبت وجوده كما يقولون فسألها :

— كيف عرفت إسمى ؟

— هذا أمر بسيط . . سمعت شخصاً يناديك

ماذا يقول بعد ذلك ؟ إنه لايجد مايقوله ! وقد سألته هى بتدلل :

— هل تعرف اسمى ؟ . .

— كلا . . .

— ولم لم تسألنى عنه ؟ . .

— . . . ! !

— إسمى لولو

— إسم جميل

— حقاً ؟

— جداً

— مِرْمى

— ولكن هل هو اسم عربى ؟

— نعم

— ولكنى لم أسمع به من قبل

فضحكت دهشة وقالت :

— لولو تدليل ليلى

— آه . . .

فقالت له وماتزداد إلا دهشة :

— أنت ساذج جداً ياقدرى

ما أحلى اسمه فى فمها ! وما أحلاها هى ! وما أحلى الدنيا فى وجودها

وسكتت عن الكلام حيناً فسكت طبعاً وكانت تديم النظر إلى وجهه لاتحول عينيها عنه ؟ فألقى عليها نظرة على عجل أبصر بها حسنها الفاتن وأناقة ملبسها البالغة ، ولم يمد يحتمل نظرتها الفاحصة فعطف رأسه إلى نافذة الترام وأرسل بناظريه إلى الحقول الترامية يميل نبتها الأخضر القصير مع ريح نوفمبر الخفيفة الباردة وقلب وجهه فى السماء كأنه يشاهد زرقتها الباهتة التى انتشرت عليها الكتبان من السحاب بعضها أبيض متوهج كالقطن المندوف، والبعض مظلم داكن كالدخان. والحق أنه ماكان يرى إلا الصورة التى انتزعتها عيناه من وجهها الأسمر الجميل واحتفظت بها متشبثة جشعة . ثم حول رأسه إليها فوجدها مازال ترنو إليه بعينيها المسليتين الجذابتين ... رباه ! . . ، وأثارت الحديث مرة أخرى فسألته :

— أرى أنك طالب ... أليس كذلك ؟

— نعم

— بأى كلية ؟

— الحقوق

— آه ... وفى أى سنة ؟

— السنة النهائية

فبدا على وجهها الارتياح وعادت إلى الصمت وكانت تنظر إلى الطريق كل دقيقة وأخرى، وكأنما أصابت هدفها فقامت واقفة وهى تقول له : « هلم » ولم يكن الترام قد بلغ نهاية مرحلته إلى الأهرام فعجب قدرى ولكنه تبعها مستسلماً إلى مقهى قريب من المحطة ، واجتازت به المكان إلى حديقة خلفية صغيرة المساحة أنيقة التنسيق يخيم عليها سكون شامل وهدوء عميق ويوحى جوها بالخيال والحب ، فاتخذا مكانهما تحت ظل شجرة وارفة ولم يكن

بالحديقة سوى زوجين مثلهما فى الجانب المقابل لهما وجاء النادل يسعى فطلبت ليلى بدون استئذانه « شوبين بيرة » دهش للطلب وامتلأ قلبه رعباً ... كيف يشرب خمراً محرمة ؟ وهم بالاحتجاج ولكنه لم يجسر عليه فسكت وهو كظيم ... وكان مبلبل الفكر يسأل نفسه : كيف عرفت هذا المقهى المنعزل البعيد ؟ ومتى عرفته ؟ من الذى صحبها إليه أول مرة ؟ فانه من المستحيل أن يكون مجيئها اليوم إليه لأول مرة ... يالها من فتاة غريبة الأطوار ... غاية فى الجسارة والجرأة ... أنظر إليها كيف تجلس واضعة رجلاً على رجل وساقها بادية حتى الركبة ... وانظر كيف تفتح مقدم معطفها عن صدر ناهد فيلوح ثدياها من وراء ستار الفستان الرقيق كتفاحتين آن أوان جنيهما ...

وانتبه من أفكاره إليها وهى تقول :

— أنت لا تكاد تبرح حجرتك إلا حين تذهب إلى الكلية ... وفيما عدا ذلك فأنت لا تفارق مكتبك على الاطلاق ... لقد عجبت لشأنك وقلت لنفسي: يالله من شاب ليس كالشبان ... ثم رأيتك لا تبالى بى ... فأقسمت

وكان الباقى مفهوماً فلم تكمل حديثها وضحكت ضحكة الظافر ثم عادت تقول :

— لا تظن أن إصرارى — الذى لا شك أدهشك — كان محض عناد أو رغبة في الفوز، فالحق أن وجهك الجميل أثر فى نفسى تأثيراً عميقاً من أول نظرة

فغلبه الحياء وخضب الاحمرار وجهه وتصبب العرق من جبينه وقال لنفسه : ويلاه ! من منا الشاب ، ومن منا الفتاة ؟ أما هى فسألته :

— لماذا جفوتنى طويلا . . أليس قلبك خالياً ؟

وحضره جواب ظن أنه غاية فى الجرأة وآية فى الغزل فتردد عن قوله هنيهة ولكنه ذكر كلامها الجسور فجمع أطراف شجاعته وقال :

— كان قلبي خالياً

— والآن ؟

أف لها، ألا تكفيها الاشارة؟ وماذا يستطيع أن يقول زيادة على ماقال؟ ولكنها خففت من حيرته فقالت:

— وقبل ذلك ألم تحب أبداً ؟

— أنا ... ؟ أبداً

— أشباب وجمال وجفاف ؟

— ولم لا ؟

— ولكن ما قيمة الحياة بغير الحب ؟

— قيمتها بغير الحب أنها حياة فحسب

— هذيان ما تقول ... فالزمن الذى لا يخفق قلبي فيه بالحب لا أعده من حياتى

— يا سلام !

— أنت إما ساذج غرير أو ماكر داهية

— لا شأن لى بالمكر والدهاء ... ولكن هل أحببت كثيراً ؟

— طالما أبحث عن الحب ... إنى أحب الحب ... وإن ضللته فى الواقع فما أضله في الخيال فانى أخلق حبيبي خلقاً وأماجيه بالشعر ... ألا تعلم أنى شاعرة ؟ ثم أتغنى بشعرى لأنى موسيقية أيضاً ...

— شعر وموسيقى ...

— نعم ... ولكنى أحب الفن للحب لا للفن ... وكم أتمنى لو يتحقق خيالى يوماً وتتفتح حياتى تحت

شعاع الحب ، إن قلبي يحدثني بأني بت على خفقة قلب من أمنيتي

فعاوده الحياء الشديد واستولى عليه الارتباك وجعل ينظر إلى غطاء المنضدة كأنما يشاهد الصور المطرز بها ، فكرت تداعبه وتقول وهي تتنهد :

— بهذا حدثني قلبي وأرجو ألا يكذبني ... ولذلك جددت في طلابك لتطمئن نفسي

فابتسم وقال :

— إذاً فأنا تحت التجربة ؟

— هو ما تقول ... ألا تقرني على ما فعلت ؟ أما أنا فاني مقتنعة بأني ما تنكبت جادة الصواب ، فهذا هو السبيل الوحيد إلى « الحياة الزوجية » السعيدة ... !

وحيرته تلك الجسارة التي لم يسمع بمثلها من قبل وعجب كيف أنها تخلص إلى غرضها غير مكترثة للحياء أو التردد كالسهم الذي ينفذ إلى القلب من خلال الدرع المتين ، ورأى ألا يجعل للخجل سلطاناً على نفسه خشية أن تقتحمه عيناها وأراد أن يخوض الموضوع بجرأة تماثل جرأتها فقال :

— صدقت يا ليلى ...

ولكن سرعان ما غالبه التردد فغلبه ولم يزد على قوله حرفاً ، وشاهدت حيرته فقالت :

« أراك تحجم عن الكلام ، على أن هذا هين علي ، وكم من شاب يجيد تزويق الأحاديث وقلبه من الاخلاص خال ... أنا أبحث عن القلب الذي يخلص لي ... »

قالت ذلك ووضعت يدها على يده فانتفض انتفاضة سرت إلى جسمها وبلع ريقه مرتين وقال بحرارة ووجد :

« قد يعز عليّ الكلام يا ليلى ولكني مخلص .. أي نعم أنا مخلص وصادق ولست كأحد من الشبان الذين تعنين ... أنا لا أخادع فتاة وأمكر بها كي أحظى منها بقبلة ثم أفر هارباً ... »

فضحكت وقالت وهي تشير بيدها « أنظر » فنظر إلى ما تشير إليه فرأى الزوجين الجالسين تجاههما يتعانقان فبدا على وجهه الغضب وقال :

— هذا شاب عابث ممن تعنين

— ما الذي جعلك تسارع إلى هذا الحكم ؟

— ألا تريته يقبل فتاته ؟

— ولم لا يقبلها إذا كان يحبها ؟

— فقال بشيء من الحدة :

— الحب الطاهر يترفع عن هذا العبث

فقالت بدلال وما تزال يدها على يده :

— هنا لك قبلات طاهرة بريئة

— وما الفرق بين القبلة البريئة وغير البريئة ؟

فأدنت وجهها من وجهه وهمست قائلة :

— القبلة البريئة تنال بغير فضول أعني بلا ضم ولا عناق

ورأى فمها دانياً كأنه يقول له « قبلني » فرت به لحظة رهيبة ... ونظر إليها في حياء وارتباك لا يدري كيف ينال هذه القبلة البريئة ، وكان كلما مرت ثانية ازداد إحجاماً ، حتى سمعا معاً وقع أقدام ، فتراجعت الفتاة وقد احتقن الدم بوجهها ، وتنهد هو ارتياحاً ، وجاء النادل بالجمة ثم اختفى ثانية ، ورفعت الشوب وهي تقول « صحتك » فارتد سريعاً إلى حالة الارتباك والحياء ، ولكن تردده هذه المرة لم يطل لأنه أشفق من أن يجرح شعورها مرة أخرى فرفع « الشوب » وتجرع رشفة ثم رده

وقد بدا على وجهه الاشمئزاز ؟ فسألته :

— ألا تعجبك ؟ فقال :

— إنها مرة كريهة

— ألم تذقها من قبل ؟

— أبداً !

— حقاً إنك شاب عجيب ! لست كأحد من شباب العصر

— وهل تدعين العلم بهؤلاء الشبان ؟

— إن أمرهم مشهور

وصمت يفكر ملياً ، فساورته بعض الشكوك ، وتيقظت به صميديته فسألها :

— ألم تعرفي أحداً منهم ؟

فباغتها السؤال ، ولكنها كانت تؤمن بأنه لا يمكن أن تخفي حقيقتها إلى الأبد فقالت باخلاص « إصغ إلي يا قدري ... أنا لا أحب أن نبدأ حياتنا معاً بالكذب والرياء وما دمت تريد أن تعلم فاعلم أني عرفت شباناً كثيرين ... »

فاكفهر وجهه وأظلمت عيناه وسألها بصوت فاتر :

— وكيف حدث ذلك ؟

— كما يحدث عادة ؛ إذ ليس التعارف من الصعوبة بالمكان الذي تراه ، وكنت أذهب إلى اللقاء تغرر بي آمال قلبي في الحب فألقى خداعاً ورياء ووعوداً كاذبة فأرجع أتعثر في أذيال الخيبة والقنوط

فازداد اكفهرار وجهه وتصلبت عضلاته وساورته الشكوك فسألها :

— ألم ينل واحد منهم قبلة بريئة ؟

— لماذا تنبش الماضي ؟

— كيف لا ؟ ما الحاضر وما المستقبل إلا امتداد للماضي

— كنت أبحث عن ضالة قلبي المنشودة

— لم لم تنتظريها حتى تأتيك هي دون تلوث ؟

— تلوث ؟ ماذا تستطيع أن تنال قبلة من طهارة قلبي ونفسي ؟ لاتكن كالجامدين الذين ينظرون إلينا نظرة الجشع والأنانية فيود الواحد منهم لو يلهو ويعبث كيف يشاء على أن تنظره عروسه خلف الستائر لاتمسها يد كأنها لؤلؤة في قوقعة . . ينبغي أن نحظى بقسطنا من الحرية ، والحرية معنى سام . ولا نظن أني حمقاء ، يخيل إلى الجاهل أن الحرية هي الاستهتار ، كلا ، هي عندي الخلاص الالهي للعقل والشعور كي أرى بعقلي وأشعر بقلبي ، فاذا أحببت فاني أهب قلبي عن حب صادق لا عن اضطرار أو تسليم أو يأس . كم من فتيات يجدن أنفسهن في بيوت رجال لايدرين كيف ذهبن إليها فيروضن أنفسهن على الرضا ترويض الأسير نفسه على الذل ويعشن حياة بهيمية تتحكم فيها ضرورات الحياة وحاجات الجسد ... كلا ، ليس هذا الزواج الذي أريد . . أنا أريد زواجاً تلتحم فيه الروحان التحام الجسمين . . فيكون اتحادهما خير عتاد لدوام العشرة الشريفة السامية . .

— لا أنكر ما في كلامك من الوجاهة والحق ، ولكن السبيل الذي تنتهجين لايسلم رواده من رذاذ يلوث السمعة .

— ليس ذلك لعيب فيه ولكن لأننا لم نعتد عليه . . فلا تجعل لهمس الناس فوق مايستحق من

الاعتبار، واذكر أن مثلي إذا وهبت قلبها فانما تهبه عن حب يصمد للعواصف فهي آمن على الحياة الزوجية ممن تسمونها « فتاة البيت » أو « الغريرة التي لاتعرف من الدنيا شيئاً . .

وبدا على وجهه الارتباك والانقباض فتولاها الخوف والقلق وقالت بشيء من الانفعال :

— ماذا يهم الماضي أوكلام الناس إذا وجدتني منذ الساعة طاهرة مخلصة حتى الموت ؟ لاتصغ إلى وسوسة نفسك وكن مثلي جسوراً واقتحم التقاليد السخيفة لتفوز بالسعادة . .

هل تبيعني بثمن بخس ؟

وكان مستغرقاً في تفكيره فلم ينتبه إلى سؤالها الضارع فاشتد انفعالها وسألته :

— هل تبيعني ياقدري بثمن بخس ؟

فهز رأسه وهو لايدري وقال لها :

— كلا . . مافكرت في هذا قط

— إذاً فهل أطمئن إليك ؟

— كل الاطمئنان

— وهل أعزي نفسي عن طول عذابي بأن تعبي لم يضع هباء وأني وجدت أخيراً التي المنشودة ؟

— أرجو أن أكون كذلك

— وإنك لكذلك؛ وها هو ذا قلبي دليلي يبث في نفسي الطمأنينة والاستسلام بما لم أعهده فيه من قبل ... كم أنا فرحة يا قدري ... إنك لم تقل لي أحبك ولم أقلها لك ولكن كلانا يعترف حاله بالحب وبأننا تعاهدنا عليه إلى الأبد ، أليس كذلك ؟

— نعم ... نعم ...

— أواه ياقدري ... كم أنا فرحة .. وكم أجد رغبة ملحة في الغناء... ماذا تحب أن أسمعك دوراً ؟ لعبد الوهاب ؟

فهز رأسه بفتور ، فقالت ضاحكة :

— إنك كغالبية الرجال تحبون أم كلثوم

— ولا هذه ، فقالت بدهشة :

— ألا تحب الغناء ؟

— أحب أن أسمع صالح عبد الحي

— إيه !

فقلق لانكارها وسألها :

— هل تعدين هذا تنافراً بين روحينا ؟

فقالت تهدئ روعه :

— كلا ياعزيزي ، إن ماما وبابا في شقاق دائم بسبب عبد الوهاب وأم كلثوم ، ولكنهما زوجان سعيدان ... إني آسفة لأني لا أحفظ أدوار صالح عبد الحي ولكني سأغني لك « افرح ياقلبي ... » وغنت بصوت عذب أطربه وأسكره وما زالت تراوح بين الحديث والغناء وهما في دنيا لاتعرف الزمان والمكان حتى حانت العودة فعادا وافترقا على موعد جديد . . .

وحين خلا إلى نفسه صاح : رباه أي فتاة !

لقد بدأته بالمغازلة ... ودعته صراحة إلى تقبيل فمها ... وذكرت الحب والزواج وصارحته بماضيها الحافل ، وعادت وهي تعد نفسها مرتبطة معه بميثاق أبدي!! انتهى الأمر ، فأحب وخطب وعاهد بالرغم من أنه لم ينطق بجملة واحدة مفيدة ! فأي فتاة هي ؟! هذه واحدة ، أما الأخرى فهي ابنة عمه الحاج اسماعيل

حافظ تاجر القمح الشهير بجرجا التي يعد زواجه منها — لدى والديه على الأقل — أمرا مفروغاً منه على الطريقة الصعيدية ، الحق أن ليلى محت من قلبه كل أثر لابنة عمه ، وأمثالها ولكن نفسه لم تطمئن إليها ، ولم يكن قدري مغلق القلب ولا متعصبا بل كان ذكيا حاد الذكاء لا تحجب التقاليد نور الحق عن عينيه، فقدر ماللفتاة من الذكاء واللباقة والرشاقة وأعجب بروحها الحساسة التي تلبي نداء الشعر والموسيقى والغناء، ولكن لم يشرب قلبه الاطمئنان فكان كمن يعجب بدين غير دينه دون أن تواتيه الشجاعة على الدخول في الدين الجديد ...

وجعل يقول لنفسه: ماذا يكون حالي لو تزوجتها ورآنا واحد من أصدقائها القدماء فمال على صاحبه وقال ساخراً « أترى هذه المرأة التي تسير إلى جانب زوجها ... ؟ كانت وكانت، وكنت وكنت .. »

ولكنه على تردده وخوفه لم يكابر في الحق فاعترف فيما بينه وبين نفسه بأنه يحبها حبا لم يحبه أحداً وأنه يهيم بها هياماً ...

إن في قلبه لحباً قوياً يروضه على النزول على حكم زمانه، وإن في نفسه لتراثاً من التقاليد الغاشمة يصده عن فلسفة العصر الحديث، وهو بينهما موزع لا يدري أين المستقر ، وعبثاً حاول أن يخلص من شكوكه وهواجسه ، وما زال يقدر ويقدر دون أن يهتدي إلى رأي أو يقر على عزم ...

نجيب محفوظ

الطـــــائرة

اسرع وألطف وسيلة للسفر من مصر إلي العراق وبالعـــكس

عن طـــــريق فلسطين

ســافروا بالســلامة على طائرات

(شركة مصر للطـــيران)

خصم ١٠ ٪ على تذكرة الاياب دائمـــا

الاستعلامات وحجز التذاكر من أي مكتب سياحة أو من مركز الشركة بألماظة